16 محرم الحرام 1431هـ - 02 يناير 2010 م - العدد : 330-331

إن فريدا كان أمة ... (تتمة)

الهوجاء التي تصادفه، ولن ينجح في ابتلاءات الدعوة التي تمحصه،وقد لا يعمر إلا قليلا، وإن عمر فبشخصية ممسوخة،لا طعم لها ولا رائحة ولا لون أصيلا.

إن مشروع القرآن الكريم في حقيقة الأمرهومشروع للأمة بكاملها.لذا ينبغي أن يكون من القرآن المنطلق، وإليه المرجع، ومنه تؤخذ التصورات والرؤى، وتستمد الخطط والمناهج، وفي ضوئه تعالج قضايا الحياة الفردية والجماعية. وهوالكفيل بإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ومن جور الأديان والإيديولوجيات إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. قد فعل ذلك في القديم حقا، ويفعله اليوم وغدا إن سلمت النوايا وصدقت العزائم في العودة الراشدة إليه مرة أخرى.

لقد ضج بعض رفاق الطريق حين تحول الشيخ من موقع خاص إلى موقع عام، تحول اقتضته طبيعة المهمة الضخمة التي أخذها على عاتقه من جديد. فقد أبى رحمه الله أن يبقى مجرد غصن في شجرة لا يتسع المجال فيها لتنفيذ مهمته،وقابلية المحل لها ضعيفة. إنما اختار أن يكون هونفسه شجرة تحيا وتنموفي تربتها الطبيعية، وتتغذى بموادها الأصيلة فتخرج تلقائيا أغصانها المتميزة، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فاكهة طيبة ذات طعم لذيذ وذوق خاص ومنظر جميل. من أقبل عليها وذاقها وأكل منها لم يعد يشتهي غيرها، ولا يرضى بسواها بديلا عنها.

إنها الشجرة التي تحيا وتنموفي تربة الوحي وتتغذى بآي القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ. وتنبت طاعات وعبادات وأعمال صالحة. وتثمر أخلاقا طيبة ومعاملات حسنة وعلوما نافعة ومعارف نيرة... تشبع نهم الأكلة الجائعين، وتستهوي المحرومين الضائعين، وتستقطب الضالين التائهين. وهي الشجرة الوحيدة المؤهلة لتلتقي حول أصلها أصول الأشجار الطيبة،وتلتف حول أغصانها باقي الأغصان الأخرى.

وكذلك كان الشيخ فريد، شجرة تمتح من عروقها عروق باقي الأشجار الأخرى في الباطن مهما بانت المخالفة في الظاهر. وتنتفع بعطاءاته وثماره في السر مهما برز التعفف في العلانية.وعم خيره القريب والبعيد وكذا الخاص والعام.كان أمة وحده داخل الأمة.فكان موته خسارة أمة ومصيبة عظمى للأمة بكاملها.

الشيخ فريد العارف بالله :

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: "يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه"(5). فكم كان شيخنا رحمه الله باكيا على نفسه خائفا من تقصيره رغم اجتهاده. شاكيا ذنوبه رغم ورعه وتقواه. مظهرا تذلله وافتقاره إلى رحمة ربه وعفوه، مرددا في مقدمات كتبه عبارة "وكتبه عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي، عفا الله عنه وغفر له ولوالديه ولسائر المسلمين". فإذا كانت مقدمة الكتاب عادة هي آخر ما يكتب منه، رغم وجودها في أوله، فإن هذه العبارة التي يرددها الشيخ هي آخر الآخر، وكلمات النهاية. وهي عبارة دالة عما يخالج نفسه من الشعور بالتقصير والتفريط والنقص، وعدم أداء ما ينبغي كما ينبغي. وهي بمثابة الزفرة التي يخرجها من انتهى من عمل مضنٍ، تعب فيه وبذل جهده ومع ذلك يراه ناقصا ومعيبا. فلا يجد بدا من التوجه إلى سيده ومولاه ليقل عثرته، ويصفح عنه، ويجبر انكساره، ويتجاوز عن خطاياه.

اسمعه وهويبعث رسالة القرآن فيقول : "...إلى جموع التائبين، الآيبين إلى منهج الله وصراطه المستقيم.. إلى المثقلين بجراح الخطايا والذنوب مثلي! الراغبين في التطهر والتزكية.. والعودة إلى صف الله، تحت رحمة الله.."(6).

واسمعه أيضا وهو يخاطب نفسه : "فيا نفسي المغرورة ألا وإنه لا وزن لعمل يومئذ لم ين بعد الإيمان على صلاة صحيحة، فماذا تغني العلوم والفهوم؟ وماذا تغني المناصب والألقاب؟ وما تنفع الأعمال والأموال؟ إن لم يكن العبد عبدا لله حقا، قائما بحق ربه العظيم، ساجدا وراكعا، خاشعا وخاضعا؟..."(7).

وكم كان شيخنا رحمه الله أيضا مثنيا على ربه شاكرا لأنعمه، لا يفتر عن الثناء على ربه وذكر مننه وفضله عليه، معتبرا أعماله من كرم ربه وهدايته. يقول في مقدمة كتابه (بلاغ الرسالة القرآنية...): "فإني أحمد الله مرة أخرى أن أرشدني اليوم إلى تقديم هذه الرسالة الصغيرة..."(8).

بل كان في كل ما كتب ونثر إنما يروم ويدعوغيره إلى توثيق الصلة بالله والتماس الطريق الصحيح إليه بشكل أوبآخر: " ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله"، "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق"، "جمالية الدين : معارج القلب إلى حياة الروح"...

وكان لسانه رحمه الله رطبا بذكر الله، يذكره قائما وقاعدا وعلى جنبه. وكثيرا ما تراه يمسك لحيته ويخرج من أعماق قلبه كلمة "الله" فتنساب على لسانه كما تنساب قطرة الندى على ورقة النبتة.

الشيخ فريد العالم بكتاب الله المتأثر بروحه :

تتلمذ شيخنا في دراسته العليا على يد الإمام الشاطبي وهومن بين الشيوخ الأموات / الأحياء الذين أخذ عنهم الأصول. فكان خير تلميذ لخير أستاذ. أبصرمن خلال مقاصده المقاصد، وخبر بمعاشرة كتبه الدروب والمنافذ. ثم من خلال الدراسات المصطلحية تمكن من إحكام المفاتيح والأدوات المنهجية. ثم كأني به بعد ذلك وقد أحسن التلقي لرسائل النور، والاستنارة بنور الرسائل، الذي هوقبس من ضياء شمس الرسالة الأم... فأجاد العروج في مدارج السالكين، ولبس دروع الربانيين المتقين، لينطلق بأتم عدة واستعداد،بكل هذه الذخيرة والعتاد، متنقلا بين منازل الوحي يستفتح المغالق، ويستكشف الأسرار والكنوز. فإذا به يبصر مالا يبصر غيره، ويسمع مالا يسمع غيره، ويتذوق مالا يتذوق غيره، ويشعر وهويتلقى كلمات الله بما لا يشعر غيره. إنه يحي الحياة الأخرى، حياة الأرواح لا حياة الأشباح. فلها موازينها الخاصة، وحواسها الخاصة، وأذواقها الخاصة.

ولما كان الجسد إطارا للروح، لا ينفصمان كليا إلا بالموت، فإن كلا منهما يؤثر ويتأثر بأحوال الآخر. إذا تقوى أحدهما ونشط، ضعف الآخر وتعب وتضايق منه. واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾(الحشر : 21).

فثقل القرآن الكريم باعتباره روحا(9) لا يتحمله الجبل على ضخامته، فيخشع ويتصدع. فكيف بالإنسان وهو دون الجبل، بل لا مجال للمقارنة. ألم يكن ﷺ وهوينزل عليه الوحي يتصبب جبينه عرقا في اليوم الشديد البرد، كما ورد في حديث كيفية نزول الوحي. ألم تكن دابته تبرك به وهوينزل عليه من الثقل. وهل شيب رسول الله ﷺ إلا هود وأخواتها؟

وما أدراك ! لعل روح الشيخ فريد قد عظمت بتعلقها بروح القرآن. فما عاد ضعف الجسد الطيني يحتمل قوة الروح الديني، فحدث التشقق والتصدع. ومهما حاول الأطباء جهدهم رأب الصدع ورتق الفتق لم يفلحوا. فقد اتسع الخرق على الراقع واشتد شوق الروح الى بارئها، واختارت الرفيق الأعلى كما اختاره الحبيب المصطفى، بعد تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة ،والنصح للأمة. وحدث الانفصام، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد كان موت أخي فريد بالنسبة للغافلين مثلي صفعة فوق رأس الغفلة -كما يعبر أحد العارفين رحمه الله- علنا نتنبه ونستيقظ. وكأن لسان الحال يقول: جاء دورك أيها الغافل فتجهز.عما قريب يأتيك داعي مولاك فتجيب رغم أنفك .كيف ترضى وتطمئن إلى حياة دنيا، حقيقتها ابتلاء ، وعيشها عناء ،وعمرانها هباء، ومصيرها إلى فناء.أمرها والله غريب، وتعلقك بها أغرب. أيا مغرورا بطول الأمل ! كأنك لا تصدق : ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾(النحل : 77). انهض من سبات غفلتك، لا تنخدع بالأحلام اللذيذة، والآمال الكاذبة!

"من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"(10).

اشتدت ظلمة ليل الدنيا ، وأذن فجر الآخرة بالبلج. ما بقي من عمر الدنيا إلا ما بين الفجر الكاذب والفجر الصادق.وها قد أذن بلال في الناس ونادى " الصلاة خير من النوم " ،وأوشك ابن أم مكثوم أن يعلن عن فجره.

صدقت يا رسول الله : «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ»(11) فحسبنا الله ونعم الوكيل: هكذا أمر صحابته ﷺ أن يقولوا حين أخبرهم بهذا الخبر فثقل عليهم الأمر.

طبت أخي فريد حيا، وطبت ميتا. فنم قرير العين. نم نومة العروس فأنت في ضيافة الرحمان، عند أرحم الرحماء، وأكرم الكرماء، بين الأحبة الفضلاء. فالسلام عليكم دار قوم مؤمنين، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر.

1- مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية (ص5).

2- من مقال للمرحوم في مجلة "حراء "العدد16/السنة الرابعة/(يوليو-سبتمبر 2009)ص31.

3- رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن 4]/2074).

4- مجالس القرآن ص 9.

5- الفوائد ص 41 (دار المعرفة ط 1420 هـ 2000 م).

6- مجالس القرآن ص 4- 5.

7- الدين هوالصلاة ص -7 الطبعة 1 2009 - طبع الكلمة للطبع والإشهار.

8- بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق ص 4 منشورات ألوان مغربية ط 2002.

9- قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾الآية 49 من سورة الشورى.

10- أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (6098).

11- من حديث أبي سعيد الخذري فيما رواه الترمذي في سننه وقال : حديث حسن رقم 3243.

رحيل رجل من أهل الله

ما أصعب أن تكتب عن عظيم، وإن «فريدا» لعظيم، وما أصعب أن تترجم لأخ حميم، وصديق كبير، وإن «فريدا» أخ في صو رة صديق، والأصعب من ذلك كله أن تكتب عن رجل من أهل الله، وإن «فريداً» لرجل من أهل الله، رجل صدق الله فصدقه الله، رجل أخلص القصد لله فكان من المخْلَصِين عند الله، اللهم هذه شهادتنا في «فريد» الفريد، ولا نزكي على الله أحدا، وقد قال نبينا المصطفى ﷺ : «أنتم شهداء الله في الأرض».

كنت في مدينة رسول الله ﷺ حين التقيت أخا كريما سلمت عليه فلم يرد، التفت إليه فإذا عيناه تذرفان، سألته : ماذا في الأمر؟ ماذا وراءك؟ أجابني بحروف متقطعة : «رحل أخونا فريد» عجزت رجلاي عن حملي، وتوقف عن الكلام لساني، وغالبت الدموع فغلبتني، ظننت في البداية أنا نحن الاثنين فقط نبكي فريدا، لكن ما هي إلا دقائق معدودات حتى شاع الخبر الفاجعة، وإذا بالمحبين لفريد في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة يبكون فريدا بالمآت : ألم كبير يعتصر الأفئدة وحسرة شديدة تمزق القلوب، وبكاء تساوى فيه الرجال والنساء، وعزاء متبادل بين الشيب والشباب...

سألني أحدهم وهو يتعجب من كثرة الباكين والمعزين والمحبين : أي شيء كان هذا الرجل الذي ملك القلوب إلى هذا الحد، وأبكى كل هؤلاء الناس؟ قلت : لم يكن صاحب مال ولاجاه، ولم يكن صاحب دنيا ولا منصب، قال فماذا كان إذن؟ قلت : كان رجلا مسكينا ضعيفا متواضعا، لكنه كان صادقا مع الله، وهذه التي بلغت به هذا المبلغ، وبها رزق ما رزق من القبول!.

يا حبيبي يا فريد : إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا فريد لمحزونون؟

الآن وقد رحلت عن دنيا الناس؟ أستأذنك في قول كلمة، أعرف أنك لو كنت حيا ما قبلتها، تواضعا منك ورغبة فيما عند الله :

لقد عرفتك -وعرفك الناس- عالما عاملا، ومربيا صادقا، وداعيا إلى الله تعالى بلسانك وقلمك، وربانيا في أخلاقك ومعاملاتك.

عرفتك -وعرفك الناس- زاهدا في دنيا الناس، متواضعا غاية التواضع، محبا للخير، راغبا فيما عند الله، شديدا على أعداء الله خصوصا اليهود لعنهم الله..

عرفتك -وعرفك الناس- رجلا محباً للقرآن، تقرؤه، وتنشره، وتدعو إليه، حتى إنك عشت بالقرآن وللقرآن، وسخرت كل ما تملك من علم ومال ووقت وغير ذلك لخدمة القرآن.

لكني عرفت فيك شيئا أعظم من كل ما سبق وهو سر نجاحك فيما سلف : إنه صدقك مع الله.

الآن أقولها لك يا حبيبي يا فريد : لقد كنت كلما رأيتك أو كلمتك أو جالستك أو قرأت شيا من مكتوبك أرى الصدق مع الله بعيني، وأحسه في قلبي وأشعر به في جوارحي.

لقد كنت أرى الصدق مع الله في كل جوانب حياتك : في كلماتك وحركاتك ومحيطك، والصدق مع الله ميزتك الكبرى التي تنطق بنفسها، وتتكلم عن حالها.

أيها الفريد :

لقد ترجلت عن صهوة جوادك وأنت الفارس المغوار، ووضعت سلاحك - الذي لم يكن سوى لسانك وقلمك- أيها المجاهد المقدام، وخلدت إلى الراحة -بإذن الله- مع الذين سبقوك من أهل الفضل والصلاح، من العلماء والعبّاد وأهل الله، فلقد أديت ما عليك، وقمت بواجبك أحسن قيام، ربيت أجيالا، وعلمت رجالا، وتركت خلفا صالحا يردد اليوم في ثبات ويقين : كلنا فريد، وإنا على العهد ماضون.

أيها الأخ والأستاذ والمربي : لقد آلمنا فراقك، وصعب على نفوسنا غيابك، لكن الله اختارك واختار لك، ونحن راضون باختيار الله عز وجل، و﴿إنا لله وإنا إليه رجعون﴾.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن ترزق أخانا فريدا الدرجات العلى من الجنة، وأن تجعله في الفردوس الأعلى مع سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ ونحن معه برحمتك يا أرحم الراحمين.

ذ. امحمد العمراوي
من علماء القرويين
amraui@yahoo.fr